آداب
مجلة كلية الآداب جامعة الخرطوم
Adab
Journal of Faculty of Arts. University of Khartoum

ISSN 0302- 8844

مجلة علمية نصف سنوية محكمة. تصدر عن كلية الآداب – جامعة الخرطوم

العدد ٤٠. يوليو ٢٠١٨م

هيئة التحرير	الهيئة الاستشارية
	بروفيسور. إبراهيم الحاردلو
	بروفيسور. عز الدين الأمين
رئيس هيئة التحرير	بروفيسور. على عثمان محمد صالح
د. سلمى عمر السيد عمر	بروفيسور. جلال الدين الطيب
سكرتير هيئة التحرير	بروفيسور. عمر هارون الخليفة
بروفيسور أزهري مصطفى صادق	بروفيسور. عبد الرحيم على
أعضاء هيئة التحرير	بروفيسور. فدوى عبد الرحمن على طه
د. قمر الدولة عباس البوني	بروفيسور. عبد الرحيم مقدم
د. عمر أحمد عمر	دكتورة. سمية أبو كشوة
د. عفاف محمد الحسن	دكتور. عبدالله حس زروق
أ. آمال عبد الماجد محمد	دكتور. يونس الأمين
	دكتورة. محاسن حاج الصافي
	دكتور. حسن على عيسي
	دكتورة. أم سلمي محمد صالح
	دكتورة. رضية آدم محمد

توجه المراسلات باسم رئيس التحرير: كلية الآداب جامعة الخرطوم. ص. ب ٣٢١

أو ترسل على البريد الإلكتروني: adabsudan@gmail.com

الإشراف العام والتصميم والإخراج: أزهري مصطفى صادق

المحتويات

القسم العربي

نونية المثقب العبدي. قراءة في المعاني والموضوعات . د.عبدالله محمدأحمد. أ. معني النور الأمين حسب الكريم ١

أسلوب الإبدال في القرآن الكريم. أ. محمد قاسمي..... ٢٦

التحولات السياسية واثرها في أزمة الهوية وتأرجحها في في رواية (عشاق وفونوغراف وأزمنة). أ.م. د. إسراء حسين جابر..... ٣٩

الشعر والدين والأخلاق بين النقاد والفلاسفة. ألاء ياسين دياب..... ٦١

القسم الأجنبي

An Analysis of the Spelling Errors. In the Written English of Saudi University Students. Babiker Idris El-Hibir, PhD. and Nouriya Al-Muhaidib, PhD. 1

قواعد النشر وشروطه

آداب مجلة علمية محكمة تصدر في يونيو وديسمبر من كل عام عن كلية الآداب جامعة الخرطوم وتقبل البحوث في مجالات الآداب والفنون والعلوم الإنسانية مع مراعاة الآتي:

١. ألا يكون البحث المقدم للمجلة قد نشر أو قدم للنشر في مكان آخر.
٢. تخضع البحوث المنشورة في هذه المجلة للتحكيم العلمي الذي يتولاه أساتذة مختصون وفق ضوابط موضوعية.
٣. تسلم نسختان مطبوعتان من البحث على معالج نصوص (حاسوب) مع أسطوانة مدمجة تحتوي على البحث. أو ترسل على البريد الإلكتروني adabsudan@gmail.com.
٤. يراعى في البحث أن يتراوح حجمه بين ٣٠٠٠-٥٠٠٠ كلمة ، ويرفق الباحث مستخلصاً باللغتين العربية والإنجليزية لبحثه بما لا يتجاوز صفحة واحدة (٢٠٠) كلمة ، ويذيل هذا المستخلص بما لا يزيد على خمس كلمات مفتاحية تبرز أهم المواضيع التي يتطرق إليها البحث. ويراعى أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على عنوان البحث واسم الباحث ، والجامعة أو المؤسسة الاكاديمية وعنوان البريد والبريد الالكتروني.
٥. تنشر المجلة مراجعات الكتب بحدود (٢٠٠٠) كلمة كحد أقصى ، على ألا يكون قد مضى على صدور الكتاب أكثر من عامين ، ويدون في أعلى الصفحة عنوان الكتاب واسم المؤلف ومكان النشر وتاريخه وعدد الصفحات. وتتألف المراجعة من عرض وتحليل ونقد، وأن تتضمن المراجعة خلاصة مركزة لمحتويات الكتاب. مع مراعاة الاهتمام بمناقشة مصداقية مصادر المؤلف وصحة استنتاجاته.
٦. أن يوثق البحث علمياً بذكر المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث في نهاية البحث. وترتب المراجع في نهاية البحث هجائياً على ألا تحتوي قائمة المراجع إلا على تلك التي تمت الإشارة إليها في متن البحث. يشار إلى جميع المصادر في متن البحث المكتوب بلغة أجنبية كالطريقة التالية (اسم العائلة. سنة النشر. الصفحة او الصفحات) مثال: (Adams. 2000. 14).
٧. تعبر البحوث التي تنشرها المجلة عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة أو أية جهة أخرى يرتبط بها صاحب البحث.
٨. لهيئة التحرير الحق في إدخال التحرير والتعديل اللازمين على الأبحاث. وتعد هيئة التحرير رأي محكم المقال نافذاً بالنسبة لنشر البحث أو عدمه أو إدخال التعديلات التي يوصي بها المحكم.

التحولات السياسية و اثرها في أزمة الهوية وتأرجحها في

في رو اية (عشاق وفونوغراف وأزمنة)

أ.م. د. إسراء حسين جابر

الجامعة المستنصرية

كلية الآداب /قسم الترجمة

المستخلص:

تركز الدراسة على تأرجح الهوية الانسانية في الرواية العراقية الحداثية بعد ٢٠٠٣م لاسيما في رواية (عشاق وفونوغراف وازمنة) للطفية الدليمي، لنكشف عن انعدام الثبات والاستقرار في الهوية الانسانية،وهذا ما عانت منه شخصيات "لطفية" الرئيسة جراء التحولات السياسية والاجتماعية التي حلت بالعراق، فأصبحت الفئة المثقفة في البلد تتأرجح في هويتها فلم تعد تعلم إلى أي مكون تنتمي أو في أي مكان تجد ذاتها، فضلاً عما أسهم فيه الاحتلال على مر التاريخ في فرض هويات ثقافية معادية وخلق أفراد مستلبين الهوية تتلون شخصياتهم وفق المتغيرات وقوة السلطة المهيمنة.

فقد امتازت الرواية بإحالة النص إلى مجموعة من السجلات الخارجية تستدعي فيها الروائية وقائع وأحداث وموضوعات وخطابات تاريخية خارج إطار المحكي النصي وسابقة عليه، وهو استحضار يحمل مهمة الكشف عن حمولات الحاضر من السوداوية وفقدان الأمل وتكشف عن قراءات متكررة للمأساة التي عاشها الإنسان العراقي عبر التأريخ ولازال يعيشها.

١-مدخل إلى مفهوم الهوية:

يتحدد مفهوم الهوية بناء على الدلالة اللغوية والفلسفية والسوسيولوجية والتأريخية لهذا المصطلح، ويقابل مصطلح (الهوية) العربي، كلمة (Identite`) و(Identity) في الفرنسية والانكليزية، وهو من أصل لاتيني ويعني: الشيء نفسه، أو الشيء الذي هو ما هو عليه، أي أن الشيء له الطبيعة نفسها التي للشيء الآخر، كما يعني هذا المصطلح في اللغة الفرنسية: مجموع المواصفات التي تجعل من شخص ما هو عينه شخص معروف أو متعين (ينظر: Encyclopedia Universal is، مادة (Identite`) في Larousse، ومادة (Identification)

وتعرف الهوية بأنها، وحدة الشيء ووجوده، وهي بمعنى التشخص والشخص نفسه والوجود الخارجي، إذ قالوا ما به الشيء هو هو باعتبار تحققه يسمى حقيقة وذاتاً، وباعتبار تشخصه يسمى (هوية) وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهية (الجرجاني، مادة هوية، بغداد ١٩٨٦.وقارن، المعجم الفلسفي، جميل صليبا،، بيروت ١٩٨٦م:ج٢: ٥٣٠).

ويعرفها علماء الاجتماع بأنها عملية تمييز الفرد لنفسه من غيره أي تحديد حالته الشخصية، ومن السمات التي تميز الافراد من بعضهم الاسم والجنسية، والسن والحالة العائلية، هذا من جهة، ومن جهة اخرى أن الهوية هي أن يكون الشيء نفسه أو مثيله من كل الوجوه، بمعنى الثبات والاستمرار وعدم التغير (احمد النوره جي، مادة هوية، ١٩٩٠م).

بمعنى إن الهوية تعني البعد الوطني أو القومي والديني والتاريخي والثقافي وحتى اللغوي التي تتحدد بها خصوصية مجموعة،ومن ثم تحدد سمات الشخصية الفردية .

ومن الجدير بالذكر فإن الهوية تتشكل بفعل العديد من اللحظات التأريخية والسياقات الثقافية، لذا فهي متغيرة وليست ثابتة، وهذا ما أكده "إدورد سعيد" في كتابه الاستشراق الذي يقول فيه: (رؤية ما بعد الحداثة تصدر عن اعتقاد بأن الطبيعة والبشر والهويات والاحداث والظواهر والافكار لا تتشكل مرة واحدة وإلى الأبد، بل كلها نتاج لحظة تاريخية وسياقات ثقافية تعطي لهذه الاشياء خصوصيتها التي لا يمكن تجاهلها كما لا يمكن تجريدها منها) (الاستشراق، ادوارد سعيد، ٢٠٠١ م: ٥١)، وهذا يعكس معنى أن الهوية تكتسب كيانها ووجودها من التأريخ

والثقافة ومتغيرات الواقع وضغوطات الزمن، وكلها خاضعه للتغيير لذا فالهوية ممكن أن تتشكل أكثر من مرة وتحمل سمات مختلفة عما سبقها.

وهو رأي يتناقض مع تعريف الهوية الذي يصب في انها عملية تمييز الفرد لنفسه من غيره ؛أي تحديد حالته الشخصية، في أن يكون الشيء نفسه أو مثيله من كل الوجوه، بمعنى الثبات والاستمرار وعدم التغير (احمد النوره جي، مادة هوية).

إذا سلمنا فرضاً إن الهوية ثابتة وليست متغيرة، فقد أهملنا دور الشعور، واهملنا دور التقلبات الفكرية والنفسية والتحولات الثقافية التي تفرضها المعرفة الثقافية والاحداث التاريخية المفاجئة المعيشة والمستمدة مما هو مقروء ومحكي.

والهوية التي يشكل التأريخ صفتها نسبية ومنظورة، ليست ثابتة أو جامدة، بل هي خلاصة تجربة فكرية وثقافية وحضارية لأمة من الأُمم (المرجع نفسه، ص٢٠).

وهذا يتوافق مع رأي "ستيوارت هال" الذي يجزم على أن هوية ما بعد الحداثة (ليست هوية ثابتة ولا هوية دائمة وتفترض هويات مختلفة في أزمنة مختلفة) (جورج لارين، ٢٠٠٢م: ٢٥١) ، وهو بذلك يؤكد على أن الهوية تقوم على الاختلاف المتخيل مع الآخر، أو التشابه من جهة أخرى.

ولعل الذات الانسانية بحسب "هايدغر"، هي وجود لا يمكن إدراكه أو فهمه بكيفية مطلقة، بل هو امكانات جديدة ممكنة (إنه لا يشابه وجود الشيء او الكتلة المادية كالحجر مثلا، بل إنه وجود حركي لا يكاد يتضح في مظهر سلوكي حتى ينقلب الى مظهر آخر) (مطاع صفدي، ١٩٨٠ ص٨).

إنَ الهوية الشخصية ليست ممنوحة بصورة نهائية منذ الولادة بل تبنى طيلة الحياة وتكتسب غالبا بالتعارض والتباعد و القطعيات مع الجماعة

وليس من الغريب أن نجد بعض المفكرين امثال "غوتلوب غريغه" (Gottlob Frege) يعلنون بأن الهوية مفهوم لا يقبل التعريف، وذلك لان كل تعريف هو هوية بحد ذاته، فالهوية مفهوم انطولوجي وجودي يمتلك خاصية سحرية تؤهله للظهور في مختلف المقولات المعرفية، وهو يتمتع بدرجة عالية من العمومية والتجريد تفوق مختلف المفاهيم الاخرى المجانسة والمقابلة له (الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصرة، ٢٠١٣م: ١٥٧).

وبالرغم من هذه الضبابية فإن مفهوم الهوية يعد مفهوماً ذا طاقة كشفية لفهم العالم.

لذا يعرفها المفكر الفرنسي "أليكس ميكشيللي" بأنها: منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الاحساس بالهوية والشعور بها. فالهوية هي وحدة من المشاعر الداخلية التي تتمثل الشعور بالاستمرارية والتمايز والديمومة والجهد المركزي، وهذا يعني أن الهوية هي وحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة التي تجعل الشخص يتمايز مما سواه ويشعر بوحدته الذاتية (أليكس ميكشيللي، ١٩٩٣م: ١٥و١٢٩). بمعنى إن الهوية لا تنشأ من مجرد التشابه في السمات، بل تتصل بطبيعة التناقضات والصراع القائم لحل التناقضات من منظار التكامل الدائم بين الأنا والآخر.

صار من الشائع أن تُربط الهوية بالماضي وبما تم انجازه فيه، كذلك ربطها بما هو ثابت لا يقبل التحول ولا يراد له أن يتحول حتى لا تتدمر معالم ما يحفظ للذات استمرارها عبر الزمن، فلا (تدنس) أصالتها وصفاؤها بفعل تحديات الحاضر، في مثول الآخر هنا وهناك، والهوية التي تستمد عنفوانها من هذه المعاني، ستغدو، ولا ريب في ذلك، مرادفة للجمود على الحال والانغلاق على الماضي.

إن الهوية (لا ترتبط بالماضي أكثر من ارتباطها بالمستقبل انها اختلاف في خدمة الحضور) (بول ريكور، ٢٠٠٩م:١٣٧)، فحتى نفهم الهوية الشخصية لابد من ربطها بكل الظروف والشروط القائمة التي تصادفها الذات في زمنيتها، فكل مسعى للوصول الى هوية خالصة يستدعي الانغلاق على الغير وعدم الأخذ منه والتفاعل معه. (فكلما كان الانقطاع حاضراً تزداد حظوظ المحافظة على التشكيلة الاجتماعية وعلى نفوذ التقليدية فيها) (أمين معلوف، ٢٠١١م:٣٤).

وهنا لابد من تأكيد أن كل حديث عن الأصالة، وما أكثره، يحمل في تضاعيفه نوعا من اكراهات الهوية، وفي الوقت ذاته نوعاً من الرهبة والخوف ولربما العدائية تجاه الآخر، الأمر الذي يفسر ازدياد دعوات (العمالة، والتشكيك، والخيانة) في الفضاءات المغلقة التي بدأت رياح العولمة ومنجزاتها تلاعب خيالات ابنائها، إذ أتاحت العولمة حساسية جديدة في الانتماء تميل الى الانفتاح بدل الانغلاق والى التعدد بدل الوحدة وإلى الشك بدل اليقين، فصار (الاعتراف بالغيرية و إدخالها ضمن كينونة " الأنا" و ربط "الأنا" بها) (الهوية والسرد: ٢٦) أمراً مفروغاً منه، فالثابت العقلي

الذي يعطي معنى متين على الديمومة في الزمن الذي هو واحد من التجليات التي تبحث الهوية عن مقاربته، فلم يعد متجذراً في فضاء المحلية، بل في فضاء العالمية.

فالإنسان الذي عاش في ظروف المجتمع البدائي لم يكن يفهم إلا علاقات القربى البدائية الأكثر صلة به، وتبعاً لهذا الفهم كان يطلق أحكامه على الطبيعة والمجتمع وكل شيء في عالمه، فالسماء والهواء والارض والبحر والعالم السفلي، أي الطبيعة برمتها، لم تكن تبدو له أكثر من مشاعة قبلية ضخمة واحدة، تسكنها كائنات بشرية تربطها علاقات قربى متعددة، ومنها انحدر تجمع بدائي كان أول تشكيلة اجتماعية اقتصادية في التاريخ (غيورغي غاتشف، ١٧.). وهي مرحلة موجودة في التطور الفردي من الطفولة وما يحيطها من علاقات تتداخل فيما بينها لتشكل أباً وأماً وأختاً، ومن ثم تصبح الجماعة، إذ تشكل بدورها عين الانسان وتشارك في صياغة رؤيته للعالم فالهوية لا تنفصل عن الحياة ولا عن الثقافة بالقدر الذي يرتبطان به بالوجود الإنساني، لأنه أحد المكونات الجوهرية للطبيعة الانسانية.

وعرّف "ادوارد تايلور" الثقافة بأنها (تلك الوحدة الكلية المعقدة التي تشمل المعرفة والايمان والفن والاخلاق والقانون والعادات، بالإضافة إلى أي قدرات وعادات اخرى يكتسبها الانسان بوصفه عضواً في مجتمع) (كليفورد غيرتز، ٢٠٠٩: ٨.)، والملاحظ إن "تايلور" أبقى التعريف مفتوحاً على أفق المعرفة التي تطبع الوجود الانساني بأشتراطاتها المختلفة.

فمفهوم الثقافة كما يراها معظم الباحثين، متعدد ومتنوع (هي شيء انساني خاص، ينفرد به الجنس البشري، وهي تشمل السلوك والاشياء المادية التي تصاحب السلوك، والتراث يشمل اللغة والأفكار والمعتقدات والعادات والرموز والمؤسسات الاجتماعية والتقنيات والاعمال الفنية والطقوس والاحتفالات) (نفس المرجع: ٨)، وطالما كانت الثقافة غير محددة وغير مؤطرة بحدود نهائية (فأن مجال الآخرية يبقى مفتوحاً دون رسم نهائي لحدوده، الامر الذي يمنح السردية أهمية قصوى بوصفها أنموذجاً للصياغة الذاتية، للذات وللعالم اذ تقوم السردية بدور التوسط، وتشكل أداة للمعرفة وصيغة للوجود والكينونة، وهذه الوظيفة المعرفية للسرد تدفع الى ربط السردية بأنساق أخرى أكثر شمولية، اجتماعية وثقافية و معرفية) (محمد ابو عزة، ٢٠٠٧م:٣٨). على أن أهم تطور في نظرية السرد خلال السنوات الأخيرة هو (تطبيقها على دراسة التأريخ والسيرة الذاتية والتحليل النفسي) (نفس المرجع: ٣٩).

والهوية كمشروع يتأسس في الزمن لا غنى له عن تراث الذات الذي تصوغه سرود حياتنا وتشكله، والعناصر التراثية الذاتية في مشروع الهوية لا تتعرض للحذف والالغاء التامين (ولكن ثمة انتقاء يقوم على الحذف والاستبقاء) (نادر كاظم، ٢٠٠٤م: ٤٥).

الهوية ليست فعلاً نهائياً في الوجود الإنساني، بل هي موضع يتشكل عبر التأريخ، سمته التجدد والانفتاح على التعدد والاختلاف، متفاعل في الآن ذاته مع الزمان والمكان والانا والآخر، فالثقافة تشكل نتاجاً يحتكم إلى الشرط التأريخي، وهذا هو جوهر الوجود البشري، وهذا الحضور يظهر عبر أطر تضمن له التشكل والاختلاف، وتوفر له الادوات الخطابية المعبرة عنه.

إن الذات الواعية موجودة دائماً داخل التاريخ، تعيشه و تعاينه، وتضع نفسها على مسافة منه بحيث يتجلى لها في كامل موضوعته، ويسمي "غادامير" هذا التموضع داخل التاريخ (الوعي المندرج في الصيرورة التاريخية"، والتاريخ على وفق مقولة غادامير، شيء نعاينه دائماً من الداخل بما هو كذلك، حيث نقف فيه، والذات بهذا الارتباط بالتاريخ، لن يمكنها أن تدرك الماضي في غيريته المطلقة، لأنها تدركه دائماً على ضوء أفقها الخاص وانطلاقاً منه، وهذا ما يميز كل معرفة تاريخية على الاطلاق، ومن يظن أن باستطاعته الوصول إلى الأفق الآخر، أفق الماضي، من دون أن يعتد بأفقه الخاص، إنما ينقل معايير ذاتية في الاختيار والمنظور والتقدير حتماً، لإعادة بناء الماضي بزعم أنها موضوعية (نفس المرجع: ٤٣).

٢-صور الهوية في الرواية العراقية الحديثة:

تشكل الرواية الحداثية كيانا ثقافيا وتاريخيا، بدا التحول فيه واضحاً على مستوى البناء وعلى مستوى اللغة والمضمون، ولعل التحولات السياسية أسهمت في تجسيد هذا التحول وأصبحت الهوية ثيمة مركزية فيها، سواء على مستوى الهوية السردية ام على مستوى الهوية الموضوع.

وشهدت الرواية العراقية الحداثية بعد عام ٢٠٠٣ نصوصاً حافلة بثيمات مختلفة تتضمن الصراع الطائفي، الاقليات، تقبل الاخر، رفض الانتماء للوطن، سؤال الهوية والبحث عنها ورفضها، وهي موضوعات استحدثت بسبب التحولات السياسية التي مرّ بها البلد، فمثلاً رواية (الحفيدة الامريكية) لأحلام كججي،نجد ثيمة البحث عن الهوية هي المتسيدة، إلى جانب ما تعرضه الرواية من انقسام الشخصيات من حيث فهمهم للهوية، فقد تمثل القسم الاول بالجدة

(طاووس) التي تتعامل مع الآخرين من خلفية انسانية تتجاوز فيها الانتماء الديني والطائفي والعرقي، فلم يكن هناك أي تحسس بينها وبين المسيحية الاشورية (رحمة)على الرغم من كونها مسلمة شيعية، أما القسم الثاني فتمثل بالأحفاد الذين اججوا قضية الصراع على الهوية وهم من افتعل التفرقة الطائفية والدينية والعرقية (إنعام كجه جي، ٢٠٠٩م).

وفي رواية (حارس التبغ) لعلي بدر يقدم الروائي مقاطعات وتعارض مذهبي في الرؤى بين الشيعية والسنية، فضلاً عن تطرقه لليهودية الليبرالية، إذ يوضح الخصوصية المذهبية لكل توجه، فيربط الهوية الشيعية بالرموز والطقوس والعاطفة والمثالية كما هو عليه شخصية حيدر سلمان المؤمن بأشكال الموروث الرمزي للشيعة وتاريخه، والهوية السنية بالدنيوية، في عشقها للسلطة واغراقها بالحسية تتمثل بشخصية كمال مدحت المنقاد لمباهج الحياة ومتعتها، في حين يربط الهوية اليهودية الليبرالية، بالإبداع والتنوير والتأمل، كما في شخصية سامي صالح، الذي يظهر شخصا مفكرا مرتبط بيهوديته بشدة. فالراوية ركزت على نزاع الهويات بين الجماعات.

ويعرض الروائي لمفهوم الهوية الجوهرية وكأنه يحاول ان يثبت للقارئ ان ثيمة روايتة قائمة على الهوية واشكالياتها، ففي عرضه لحياة الموسيقار، وكيفية ارتباطه ببلده واعتزازه بانتمائه، يرد على لسان الراوي: (كانوا يطلقون عليه الهوية الجوهرية، ذلك لأن حياته تبين إمكانية التحول من هوية إلى هوية عبر مجموعة من اللعبات السردية، فتتحول الهوية إلى قصة يمكن الحياة فيها وتقمصها، وهنا يطلق هذا الفنان ضحكة ساخرة من صراع الهويات القاتلة عبر لعبة من الأسماء المستعارة والشخصيات الملتبسة والأقنعة، وفي غمرة الحرب الطائفية في بغداد قبل مقتله، زاره أبناءه الثلاثة، فكشفوا عن هذا الإسقاط الهوياتي بصورة واضحة، فمئير يهودي من أصل عراقي هاجر من إسرائيل إلى أمريكا، والتحق بالمارينز وجاء ضابطا في الجيش الأمريكي إلى بغداد، وهو ثمرة شخصيته الأولى، وحسين بعد تهجيره إلى طهران ارتبط بهوية شيعية، وانتظم في الحركة السياسية الشيعية وهو ثمرة شخصية الأب الثانية، وعمر كان سنيا يحاول أن يدعم هويته من تراجيديا إزاحة السنة عن الحكم في العراق بعد العام ٢٠٠٣ وهو نتاج شخصيته الثالثة، وكل واحد منهم كان يدافع عن قصة مصنوعة ومفبركة ومزودة بالكثير من العناصر السردية والوهمية، والتي يعيش كل واحد منهم فيها بوصفها حقيقة) (علي بدر، ٢٠٠٨: ١٣-١٤).

فقد كان للمسارات التاريخية والثقافية والتجارب المعيشة والأفكار المكتسبة أثراً في تغريب الهوية، فالرواية كانت متكلفة في طرح العداء بين البشر وبين الطوائف والاديان، وكأن الروائي حاول فصل الدين عما هو ثقافي.

أما لطفية الدليمي في روايتها (عشاق وفونوغراف وأزمنة) من الروايات التي تتميز بإحالة النص إلى مجموعة من السجلات الخارجية تستدعي فيها الروائية وقائع وأحداث وموضوعات وخطابات تاريخية خارج إطار المحكي النصي وسابقة عليه، وهو استحضار يحمل مهمة الكشف عن حمولات الحاضر من السوداوية وفقدان الأمل وتكشف عن قراءات متكررة للمأساة التي عاشها الانسان العراقي عبر التاريخ ولازال يعيشها،وهي حمولات تكشف عن أزمة الهوية وتأرجحها وهيمنة هويات طارئة.

وتقف الرواية على مجموعة من القضايا المتعلقة بالهوية واشكالياتها التي يعكسها الواقع وتحولاته واهمها:

١. تأرجح الهوية الانسانية
٢. استلاب الهوية (الهوية المهجّنة)
٣. هيمنة الهوية الثقافية المعادية

اولاً: تأرجح الهوية الانسانية:

إن مصطلح التأرجح يرتبط بعدم الثبات الاستقرار، وهذا ما عانت منه شخصيات لطفية الرئيسة وهذا انعكاس للتحولات السياسية والاجتماعية التي حلت بالعراق فاصبحت الفئة المثقفة في البلد تتأرجح في هويتها، فلم تعد تعلم إلى أي مكون تنتمي وإلى أي أرض لاسيما شخصية (نهى) وشخصية (صبحي الكتبخاني) جد والدها، إذ تتلاقى الشخصيتان باتسامهما بالتمرد والتميز بهويتهما الانسانية التي تتجاوز الانتماءات القومية والدينية والعرقية والطائفية.فهويتهما تعلقت بكل ما هو انساني بحت من عشق وفن وازمنة راسخة، يؤكد ذلك العنوان والمسار السردي للرواية.

فتتلاقى الشخصيتان فكرياً ونفسياً في ترسيخ هويتهما، فكلاهما يبحث عن هويته الفردية التي تتجسد من خلال الشعور بالانتماء إلى جماعة تتوافق إنسانياً وتتلاقى ضمن منظومتهم من القيم والأحاسيس والتوجهات، وهي بذلك ترتبط بالثقافة القائمة والتنشئة الاجتماعية. فلكلا الشخصيتين مقومات لا يمكن أن تصلح مقياسا لتحديد الهويات الاخرى وإن تشابهت بعض العناصر.

فشخصية (نهى) التي تتعرض للاختطاف، ومن ثم تشهداغتيال أخاها في بلدها العراق، وذلك بعد الاحتلال الامريكي عام ٢٠٠٣م، تحاول البحث عن هويتها خارج اطار الوطن، لتتشبث بأحضان الغربة التي تحاول بصعوبة الاندماج معها فهي (تحاول أن تتناغم مع الأمكنة اينما تلقي بها الاقدار، تحاول وتخفق، تخذلها وسائلها، تجهل الطرائق العجيبة التي يتبعها المتوائمون مع الأمكنة والبلدان ليفوزوا بنوع من طمأنينة زائفة في خضم حياة ليست حياتهم لانها تبقى _مهما فعلوا ومهما حاولوا- محض استعارة هزلية مؤقتة) (لطفية الدليمي، ٢٠١٦م:٢) فالشخصية تعيش صراعاً بين البحث عن الهوية في أرض الغربة في مقابل ذكريات الطفولة التي تشكل هي الأخرى هويتها الذاتية التي غالبا ما تثير هواجس الانتماء للتأريخ وللثقافة حتى بدت حياتها مرتبكة لتسأل ذاتها (من هي ومن تكون). وحين تتذكر حدث اختطافها تقر بعدم وجود شيء يربطها بهذه البلاد الموجوعة، إذ تجده بلداً(يغتال كل رغبة، ومتى ما أغتيلت الرغبة فإن الاغتيالات الكبرى ستحصل: أنا على سبيل المثال من اغتيلت رغبتي في الحب والحياة في محاولة اختطاف وزواج فاشل، واغتيلت رغبتي في العمل حين عدت الى بغداد وامامي احتمال كبير أن لا اعود مطلقاً الى غرينوبل، كم من الاغتيالات تلاحقني ؟ كيف سأنجو من كل هذا المسخ لحياتي؟) (الرواية: ١٠١).

فهي شخصية محورية جعلت من القارئ يتنقل معها من واقعها إلى تأريخ عائلتها التي تعرفنا عليه من خلال مخطوطات موروثة من جد والدها فهي (الحفيدة الاخيرة التي ستجمع اخبار الاسرة والبلد معاً) (الرواية: ٩٢)، فكانت وسيلة حملت بالقارئ ليتعرف على تاريخ العراق منذ الاحتلال العثماني وإلى وقتنا المعاصر. وليتعرف على شخصيات ولدّتها التحولات التاريخية بفعل التقلبات السياسية والدينية والعرفية، إلى جانب التحولات الثقافية التي فرضت توجهات على كل شخصية لتتشكل هوياتها.

فتحاول الشخصية أن تجد مبررات في عدم انتمائها للوطن ورغبتها في الهجرة:(بغداد في حزيران ٢٠١٤ ليست بغداد التي تعرفها نهى: البلاد ظلٌ ممزق لصورة تتلاشى، بغداد تغيرت والعراق ليس

هو العراق الذي غادرته في ٢٠٠٦، وجدت نهى صعوبة في التآلف مع طعم المرارة القاتل، المدينة في حالة انحلال، الناس يغالب بعضهم بعضا والقبح ينتشر كوباء اسود والزمن يتطاير من مطحنة الاحداث ويتبدد على الوجوه) (الرواية: ٢٢٩).

إذا اتفقنا على أن البحث عن الهوية يكون في حالات عدم القدرة على الفعل أو التعاطي مع الآخر بشكل عفوي إلى جانب عدم القدرة على الإنجاز فضلاً عن الإحباط والعجز عن الشعور بالتوازن مع الآخر ليصل بالفرد إلى الخوف من هويته فان شخصية (نهى) تشكل شخصية إشكالية،فتارة تعيش أزمة الهوية وذلك بشعورها بالغربة وعدم قدرتها على تحقيق أهدافها المستقبلية وعزلتها اجتماعياً، وتارة نجدها باحثة مستفيضة عن ذكريات بلدها وارتباطها الروحي بطفولتها وصباها والأماكن التي تهيم بها، وبحثها المتواصل عمن يشاركها اعباء محنتها.

وبعد عودتها إلى العراق تتحول تلك الرؤية، بتعرفها على شخصية (نادر) الذي سبر سرّ أنوثتها وأدرك أبعاد ما تفكر فيه وما ترنو إليه روحها الحذرة.

وشخصية (نادر) من الشخصية المتشبثة بالوطن ولا ترغب في تركه، وشخصية منعزلة عن محيطها ليس لها القدرة على الانخراط مع المجتمع، ألا أن حبه (لنهى) مكنه من تخطي حدود العزلة ليعاود الاحتكاك بمجتمعه، فكانت تؤرقه (الأضحيات البشرية التي تقدم صباح ومساء على مذبح العقائد والسياسات ؛ فيعمد في احيان كثيرة الى إغلاق منافذ الاتصال بالعالم الخارجي ويمتنع عن مقابلة أصدقائه المعدودين الخُلّص ويستغرق في قراءات مستفيضة عن الكون وفلسفة العلم ومستجداته) (الرواية: ٣٣٢).

فهناك عدم ثقة بين الجماعات والهويات المختلفة تمخض عن ذلك عدم القدرة على تقبل الآخرين وعدم القدرة على التواصل ؛هذا سببه ضعف المواطنة وتشظيها داخل الهوية المتباينة.

لعل الاحداث التي اعقبت ٢٠٠٣ اسهمت في فرض هوية اجتماعية ودينية وثقافية محددة على المجتمع، وهو مجتمع متعدد الهويات وهذا ما خلق فجوة بين المواطنين أنفسهم ومن ثم ضعف المواطنة وغيابها.

وعلى الرغم من تلك الفجوة بينه وبين المجتمع الا انه كان معتزا بهويته العراقية رافضاً لعروض الهجرة فهو (مصمم على عدم اقتلاع نفسه من العراق ويردد دائما ؛ رغم معاناتي كل انواع الرعب والخوف والعزلة وتوقع ما هو اسوأ كل يوم، لكني لا استطيع العيش بعيدا عن هذا البيت) (الرواية: ٣٣٤).

وتبدو شخصية (نهى) أكثر تأثراً بما حدث في العراق من استبداد وطغيان وانعدام للحرية،إذ وجدت هيمنة للهويات التقليدية المنغلقة على ذاتها، وهذا ما جعلها لا تشعر بالانتماء للوطن، لذا كان البقاء في البلد محور صراع بينها وبين نادر،فلم تحبذ البقاء في العراق، فحاولت إقناع نادر بذلك:(نادر انت حالم كبير، العراق بيئة طاردة للعلم والابتكار ومن سيهتم باختراعك هذا

- أؤمن أننا بالحب نستطيع انجاز الكثير، الحب قوة دافعة عظيمة أتؤمن بما أفعل؟؟) (الرواية: ٣٧٣).

فتجد الشخصية هويتها بالحب لما فيه من طاقة ايجابية تمكنها من التكيف مع الاخرين والتعامل معهم في حدود ايمانها بإنسانيتها ومشاعرها وانتمائها إلى من تحب،فهي لا تؤمن بأي حدود زمانية أو مكانية تحدد هويتها سوى الانصياع إلى رغباتها، وهي رؤية كما أراها سطحية جداً وإلا لما عانت الشخصية من عدم الانتماء لعالم الغربة، ولم يكن للحنين دور في هيمنة الذاكرة، وما يظهر من أيديولوجيات ليست سوى تعالياً على الواقع وعدم الاعتراف بالضياع.

وتعكس الرواية هوية المثقف في العراق: (طرازنا من النساء والرجال لم يُخلق لهذا الزمن، حولنا أمة من الأقنعة وحشود من القتلة علّمني عمي الشيخ قيدار أن أدع كل شيء خلف ظهري وأمضي قدما،.....في بغداد يتشابه الجميع ليختلفوا أكثر ويقتل أحدهم الآخر، هم نتاج الكراهية والتحارب والدماء، وقد يقتلنا البعض قتلا معنوياً بخداعه لنا) (الرواية: ١٤٥).

، فالنص يعكس أزمة الهوية الثقافية في العراق سواء للمرأة المثقفة أو الرجل، وهو جزء من الأزمة الاجتماعية، وهذا نابع من تدهور العلاقات الاجتماعية بين فئات المجتمع. لذا فهوية المثقف تعد هوية مستلبة بسبب ما يهيمن من هويات متطفلة ووصولية مرتبطة بالسلطة.

ولعل المرأة المثقفة في المجتمع تواجه نسقاً اجتماعياً رافضاً لخطابها، وهذا نابع من تصور قاصر ومحدود.

وتشكل اللغة هي الأخرى هوية لكنها متأرجحة بين لغة الغربة ولغتها الأُم،، فعلى الرغم من حماية الفرنسيون للغتهم من طغيان اللغات الأُخرى، تلجأ إلى أفكارها التي تتوسد ذهنها باللهجة العراقية والاغاني العراقية والعبارات التي تثير الانتماء للمجموعة (وسط بلبلة لغات وأراق، هي بين الغرباء تلوذ بلغتها التي تحبها، ترى اللغة سوراً لا مرئياً يحرس وجودها من التلاشي، تفكر وتحيا وتتحرك في أروقة لغتها، تعوم في نهر من مفردات وعلامات، واللغة تتدفق حولها ومن اعماقها) (الرواية: ١١٠).

فلم تكن اللغة مجرد كلمات وألفاظ للتفاهم لكنها جزء من هوية الشخصية (نهى) وهي وعاء لكل خبايا واسرار مجتمعها،فما كان رسوخ تلك اللهجة إلا انجذاب وحنين لمجتمعها. في مقابل ضغط اللغة الفرنسية بحكم غربتها وعملها في ذلك البلد، وهذا ما شكل تأرجحا بين محاولتها التكيف مع واقعها المعيش وذكرياتها التي تشدها إلى جذورها.

وتشكل شخصية (صبحي الكتبخاني) والد جدها نقطة الالتقاء بينها وبين التاريخ، فقد توافق مع شخصيتها في رفضه للهوية التي اكتسبها من عائلة الكتبخاني،وتمرده على أسرته ذات الولاء الاعمى للحكم العثماني.

فقد اجتهد قدر استطاعته ليحقق تمرده على التقاليد المتزمتة، مقتحماً عالم الحداثة في ملاحقة الاختراعات الحديثة والشغف بالعلوم والموسيقى والنساء، وتكشف مذكراته عن طموحات شاسعة، وسعي متواتر لتحقيق حلمه بتغيير نمط حياته وواقع المجتمع البغدادي البائس الراضخ تحت الهيمنة العثمانية، وتحقيق بعض أحلامه وتطلعاته بتحرره من هيمنة الأسرة وسفره إلى "الأستانة" للدراسة واكتساب الخبرات،كان يظن إنه سيجد هويته في السفر (هناك سيتاح له أن يقرأ فولتير، سيقرأ مونتسيكيو، سيقرأ مسرحيات موليير المترجمة للتركية، سيقرأ ويقرأ ولا سبيل إلى ذلك سوى السفر إلى الأستانة وهناك سيرى حقيقة السلطان والسلطنة التي يقدسها أبوه على انها امتداد للخلافة الاسلامية وهي وحدها التي يحق لها حكم بلادنا والبلدان الاسلامية اجمعها، وكانت هذه إحدى تناقضات الأب والابن ؛ فكل منهما يمثل ضداً مخالفاً لصاحبه، هناك سيرة عن كثب حقيقة ما يشغله من أمور جرى الاختلاف عليها..) (الرواية: ١٧٩).

فصبحي شخصية حرة استطاع مواجهة التحديات، فقد رفض التبعية للسلطة الأبوية ورفض للتصلب والجمود في التكوينات الاجتماعية، فقد خلق النص تنويعات اجتماعية تجسدت في مجتمع غير ديمقراطي،ومن ثم حقق نوع من التراجيديا المتمثلة بالتعصب والنزاع، فالمجتمع العربي تقوم بنيته الاجتماعية على القرابة والدم وهي علاقات طبيعية قسرية ؛ لذا فالخروج عن هذه الأسس يعد متمرداً ورافضاً ومتعارضا مع ما هو سائد.

هذا التمرد لم يكن على مستوى الأفكار ورفض التبعية فحسب،إنما طال الهيئة الخارجة المنبعث من الانبهار الخارجي بالآخر:(خلع الملابس التي أتى بها من بغداد تنهد وشعر بأنه تحرر من عبء ثقيل طال حمله واعتبر ملابسه البغدادية منذ تلك اللحظة أسمال زمن لن يعود، وطلب من مالك المخزن أن يهبها لخادمه، انتشى جسده الفتي وهو يلامس القميص القطني الرقيق بنعومته الفائقة وامتلأ زهوا والبائع يعلمه كيف يعقد الرباط الحريري الفرنساوي الصنع وكيف يعتمر طربوشه الجديد الذي يليق ببدلته الفاخرة، ولم يكتم مشاعر الفخر بالتغيير الذي حصل له وهو يرى هيأته الجديدة التي جعلته رجلاً ذا شخصية مختلفة تماما وتناسب شاباً يدرس في الأستانه) (الرواية:٢٠٢)، فقد أبهرته المدينة بقشرتها الخارجية فكان الملبس أول تلك القشور التي لا تلبث أن تتعرى أمامه ليرى زيف ما تلك المجتمعات وما تخفيه، وما تحاول تصديره للدول العربية الخاضعة لها.فكل هوية تتشكل بفعل التجربة المشتركة في ظروف محددة إذ تتبلور التصورات والقناعات بأنه ينتمي لجماعة دون اخرى، وبالإمكان أن تتغير تلك الهوية بتغير القناعات وتعدد التجارب وتحولات الزمن.وقد تتأرجح بسبب تحول الانتماءات.

يرى صبحي الكتبخاني هويته مع بنفشة المغنية (هذه المرأة العجيبة وجدت قبل جميع الكائنات والازمنة والامكنة من اجلي وحدي، قبل بغداد او يولد السلاطين او تقوم الحروب او تضرب الطواعين والكوليرا مدينتي الحزينة) (الرواية: ٢٨١).

فالهوية بالنسبة لصبحي ولنهى اكبر من أن تتحدد بالمكان، فهما يريان الإنتماء إلى هويتهم من خلال رفضهم للاستبداد والظلم وبحثهم عن الاستقرار والاطمئنان في ظل المشاعر الانسانية والانتماء إلى من يحبان والتلذذ بكل طاقات الفن وعذوبته، وعدم التشبث بالماضي وتخلخل الارتباط بالحاضر والمستقبل.

ثانياً:استلاب الهوية (الهوية المهجنة):

تُعد الرواية من أكثر الأجناس الأدبية قدرة على رصد التغييرات الاجتماعية، إذ عالجت ثيمة الاحتلال، وما نتج عنه من (مضامين نفسية وثقافية) (آرثر ايزبراجر، ٢٠٠٣: ١٠٨)، فضلاً عن التقلبات السلبية الحادة، والظروف المعيشية القاهرة، الأمر الذي يسعى الروائيون إلى ترسيخه في رواياتهم، انطلاقا من فداحة الواقع المعيش.

فعلى أثر التحولات السياسية والاجتماعية على مرّ التاريخ، تولدت شخصيات متلونة، تتملق لنيل رضى السلطة خوفا من الفقر وفقدان السطوة.

تطرح الرواية تحولات الهوية وفق التحولات السياسية (تغيروا جميعا كما تغيرت البلاد، الأفكار والامزجة غيّرتها الحروب والانحيازات والاوضاع الاقتصادية، بعضهم تحولوا إلى أثرياء، بعضهم هاجروا، الآخرون سجنوا والبعض راحوا ضحايا الحرب ونزوات الحكام، القت نظرة ملؤها الخذلان والمرارة على الصور واعادتها الى العلبة) (الرواية: ٥٣).

وشكلت التحولات السياسية والاقتصادية، عنصراً مهماً في تشظي هوية المجتمع، فبرزت على السطح الهويّات المهجنة، كونها تجسدت بسبب الاكتساح الشديد للأنموذج العثماني بثقافته وتأثر البعض بها وثبات الآخر على مبادئه وقوميته.

وتبرز الهوية في رواية لطفية بشكل وصيغ اخرى وذلك تبعا للظروف المؤثرة، فتظهر الهوية في شكل تنظيمات وهيئات واحزاب، فتظهر عائلة (اسماعيل الكتبخاني) وابناء عمومتهم (عائلة الخيامي) يمثلون الهوية المتحزبة والمتلونة وفق لون من يحكم البلد وذلك من أجل الاستمرار بالعيش في بذخ المال والاملاك والشهوة والسلطة والجواري، ومن ثم يتحول الولاء الى الاحتلال البريطاني، ومن ثم للحكم الجمهوري والبرلماني،حتى ان ابناءهم ورثو تلك الهوية المهجنة والمتلونة على حساب الانتماء الوطني والشعور بالإنسانية وعدم الاعتراف بحقوق الاخرين.

ومما لا يمكن تجاوزه، إن الهوية العراقية التي تكشف الرواية عن تجزؤها بفعل تركة التخلف وبفعل الاستعمار، تشكل جزء من صياغة الهوية التأريخية: (ها هي السلطة العثمانية التي تقف على حافة الهاوية تقدم الرشاوي للعوائل الثرية وتمنحها اقطاعيات كبيرة من الاراضي الزراعية

وقد نال والدك أراضي خصبة واسعة قرب سلمان باك وشرع بزراعتها، وعمد الوالي إلى إغراء العشائر المتمردة بتوزيع الاراضي على زارعيها بسعر رمزي...) (الرواية: ٣٥٦).

من المسلم به أن هوية أي بلد معتدى عليه من أجل استغلاله اقتصاديا، هو هيمنة الرأسمالية على الهوية الثقافية، فكل محتل يهدف إلى إحلال ثقافة محل ثقافة أخرى ودينه محل دين آخر.

في ظل أي احتلال تنتج سياسات خاطئة واجراءات عشوائية أسهمت في تمزق الهوية في مقابل هويات طارئة سمحت للمحتل في الهيمنة بفكره وثقافته على المجتمع ومن ثم بلورة التمزق في الهوية، تحقيق الانتماء للنموذج المشابه هذا الانقسام بالهوية عكس اضطرابا وعدم توازن حتى فشل الناس في صنع هوياتهم في تحقيق الإنتماء للنموذج المشابه لهم: (خرج بعض الناس من البيوت وتبعوا مسيرة القوات المنتصرة الى منطقة القشلة ليشهدوا إنزال العلم التركي ورفع العلم البريطاني على برج الساعة – اعلى برج في بغداد،إنخرط بعض الرجال ممن كانوا يوالون الاتراك بالبكاء وشتموا الانكليز علانية وهم يرون رايتهم ترفرف على مبنى القشلة) (الرواية: ٤٠٦).

إلى جانب ذلك بالإمكان أن تنشأ أزمة الهوية إذا كانت السلطة تهيمن بهويتها على حساب الهويات الفرعية الاخرى، ينتج عن ذلك هويات مهجنة ومتلونه لا تستطيع السيطرة على ذواتها، فإسماعيل بك يتودد للسلطنة العثمانية ورجالاتها، وبمجيء الانكليز يغير من انتمائه إذ يكرر قوله: (المصالح تقتضي أن تكون كل يوم بلون وكل يوم بصورة ؟؟) (الرواية: ٤٢٤)، كذلك شخصية رأفت زوج عمة فؤاد الذي كان مؤيداً بشكل قاطع للإنكليز بعد أن كان مؤيدا للعثمانين وذلك بسبب جشعه وطمعه لجني المال، وهذه الشخصيات تتوالد في جميع المراحل إلى أن تصل إلى الاحتلال الامريكي الذي خلق أزمة أخرى للهوية وظهور شخصيات انتهازية على حساب انتمائها الوطني والديني والقومي.

ثالثاً: هيمنة الهوية الثقافية المعادية:

إلى جانب ما ذُكر أخذت الرواية على عاتقها كشف الثقافات المتسلطة من قبل المحتل سواء بشكل ظاهر أو خفي،إذ فرض المحتل ثقافته على الشعوب في محاولة لفرض لغته وثقافته وتفكيره، يظهر ذلك جلياً في الاستعمار العثماني الذي حاول فرض لغته التركية على العراق وعلى البلاد التي تقع ضمن سيطرتها.

ويُعد (البعد الثقافي) من أخطر أبعاد الفكر الاستعماري، فقد شاعت قيم ومبادئ ثقافية تعود للمحتل، وإحلالها محل الثقافات السائدة، مما يعني تلاشي وتحطيم القيم والمعايير الثقافية وإحلال القيم الثقافية للآخر ؛أي أن الاستعمار يهدف إلى فرض نموذجه وثقافته وسلوكياته وقيمه وأنماطه واستهلاكه على البلد المحتل، حتى لا يتسنى التفكير بثقافتنا وخصوصياتها إذ إن (الثقافة الوطنية تحت السيطرة الاستعمارية هي ثقافة غير ثابتة، يتم التنافس عليها، والسعي إلى تدميرها بطريقة منظمة، وسرعان ما تصبح مدانة بالسرّية، وتبدو هذه الفكرة بسرعة في ردود أفعال المستعمِر، الذي يترجم الالتصاق بالجذور (بالعادات والتقاليد) على أنّه إخلاص لروح الأمة، ورفض واضح للانصياع لهيمنته) (شهلا العجيلي، ٢٠١١م: ٥٣).

ولعل أول الأشياء التي حاول الاحتلال تهميش اللغة العربية وابعادها عن المراكز الرئيسة للحياة والنفوذ وعوضت باللغة التركية لتشمل أغلب دواليب الادارة وهي لغة الغزو المستعمر حتى تعطلت عن دورها الطبيعي كلغة قومية (فبدأ مناصروهم في بلاد الشام بحظر تعليم اللغة العربية) (الرواية ٣٠٣).

هنا رفض المحتل الهوية العربية المبنية على أسس ومبادئ وتراث، ليفرض هوية التتريك التي تعد أحد اشكال الهيمنة الثقافية.

ولم تكن الهوية الاستعمارية طاغية على اللغة فقط انما تجاوزت ذلك لتشمل سلوكيات الافراد كما هو حال عائلة اسماعيل بك الكتبخاني الذي تأثر (بالعادات العثمانية في تقاليد المطبخ واصول المائدة باستثناء جلوس النساء مع الرجال على مائدة واحدة ؛ إذ لم ترق له هذه العادة الدخيلة على تقاليد اسرته، على نقيضه كانت عائلة الخيامي –رغم تزمتها الظاهر- تجتمع كلها: الأم والأب والأبناء والبنات إلى مائدة واحدة) (الرواية ١٦٦).

حتى السلوكيات المنحرفة وعدم الاستقامة التي اتصف بها بعض أبناء إسماعيل بك،المتأتي من طغيانهم وحب التسلط بسبب ارتباطهم بالسلطات الحاكمة، وهذا ما جعل نشأت الذي جُن عشقاً بالخادمة الحبشية الجميلة التي اثارت الفوضى بين ذكور بيتهم يغتصبها، ويتهم رجب الذي احبها،وهذا جزء من استبدادهم للناس واغتصاب لحريات وحياة الاخرين فقد:(كان الصدق والعدالة والاستقامة تُداس بالاقدام على الضد مما يدعي والده وما يقوله الكبار جميعا) (الرواية ١٧٤)، فتبنت الشخصيات هوية المستعمر الثقافية، بسلوكياتها واخلاقياتها.

أما المرأة التي تعيش في كنف هذه العائلة ليس لها أثر في مجتمعها، فهويتها مغيبة، لا دور لها سوى ان تكون تابعه، لا حقوق ولا رأي لها فقد حُرم: (على نساء البيت المقموع التدخل في أي نقاش يدور بين الرجال ذوي القلوب الحجرية والاصوات الجهيرة) (الرواية ٢٥٦).

إن هوية المرأة العراقية في العهد العثماني كانت أسيرة للعادات والتقاليد التي جردتها من قيمتها الانسانية، فقد كان ينظر لها بمستوى أقل من الرجل، لذا كان نصيبها العزلة في منزلها ومحيطها الاجتماعي، فلا منفذ للتعبير عن مكنونها، حتى زواجها لم يكن لها رأي فيه، فضلا عن حرمانها من التعليم الذي كان حكرا على الرجال.

هذه الهوية هي جزء من ثقافة المحتل التي فرضها، وهي ثقافة تختلف عن ثقافتة، فكانت المرأة في الدولة العثمانية تمارس حقوقها الاجتماعية كاملة، وتتمتع بقدر كبير من الحرية، حتى أن هناك انجازات تنسب إلى النساء.

ليس هذا فحسب بل تسللت ثقافة المستعمر لتشمل التعليم وتشويهه من حيث المناهج التي أدت بالمجتمع إلى ضياع هويته الثقافية وتخلفه: (نحن نراهن على وهم، التعليم أساس حل معضلتنا، لي في بلدنا تعليم حقيقي، هناك مناهج تروج للغباء والتواكل، مناهج عمياء تقتل الصوت الحر والمبادرة وتدجن الاطفال ليكونوا قطعانا تُساق نحو فناء محتوم) (الرواية ٤١٦).

حاول المستعمر أن يجعل التعليم مقتصرا على الكتاتيب وحفظ القرآن الكريم، وغالبا ما يستخدم الملا العقوبات الشديدة مع الاطفال وهي طريقة متخلفة تعتمد الحفظ الاعمى، في حين القراءة والكتابة كانت اشبه بمستحيلة.

ولعل هذا التخلف في مسار التعليم جعل جمعية الاتحاد والترقي تتبنى مهمة الاصلاح، فكان التعليم احد أهم القضايا التي حظيت باهتمام هذه الجمعية، فكان صبحي الكتبخاني احد المنتمين لهذه الجمعية، فكان مساره يقف بالضد ما زرعه المستعمر من تخلف وضياع.

ومن المهيمنات الثقافية للمستعمر تحريمه الفن من موسيقى وغناء، كما حصل في تحريم تداول جهاز الفونوغراف[*]: (روعني خبر نشرته جرائد الاستانة عن صدور فرمان سلطاني بتحريمه بعد ان انتشرت قوالب نقلت عليها آيات من القرآن في بيروت وحلب والشام وخشيت ان يحظر الفونوغراف في بغداد قبل وصوله ويصدر حكم من ذوي العقول التي لا تفقه أمور العلم والتطور بإتلافه الآلة الساحرة) (الرواية: ٢٦٥). ولم يسلم المجتمع من تشوهات الدين فقد جرد المستعمر الدين من انسانيته، حتى اصبح عادة وليس عبادة، فقد ارتبط حفظ القران عند شخصية صبحي مثلا بالخوف والعقوبه والسلطة (في تلك اللحظة كره كل سلطة - سلطة الاب والخواجة جميلة التي كانت في غاية القبح –على نقيض اسمها -كره صبحي كل ما يقيد روحه ويذلها، واضناه تلقي العقاب الشديد بالعصي كل يوم وارتبط حفظ القران لديه بالألم البدني والاذلال المريع).

فالمتخيل الروائي يمتاز بالتعدد والانفتاح الدلالي على عوالم البنى الثقافية والايدلوجية، مما يطرح أشكالاً أمام تحديد المداخل القادرة على احتواء هذا الانفتاح ولا بد لكل محاولة تأويلية ان لا تكتفي بدقة النظر إلى العمل ذاته بل وتجاوزه باتجاه عالم الأفكار والتجارب.

وتحاول الروائية ان توضح بشيء من التكلف كيفية تغيير الهوية المكانية بسبب هيمنة المستعمر وسيادة العنف التي غيرت من بلوغرافيا السكان وغيرت من فكر وقناعات المجتمع ليشعر الفرد في بلده بالاغتراب وعدم الامان:

(منذ سنوات لم تذهب حياة الى حي المهندسين في شارع فلسطين، تنكر الشوارع في بغداد والشوارع تنكرها وهي لا تتذكر هذه المشاهد الغريبة، أهي التي تغيرت أم الشوارع ؟ أم طال التغيير كل شيء وهي المعتكفة في بيتها بحي الداوودي لا تخرج إلا لضرورة ؟ هذه الشعارات العنيفة

[*]هو أول جهاز استخدم لتسجيل واستعادة الصوت إخترعه الأمريكي توماس إديسون في عام ١٨٧٧ اشتهر اسمه بالفونوغراف وفقًا للنقل الحرفي من كلمة فونوغراف ومعناها الكاتب الصوتي مشتقة من اليونانية حيث تشتق من كلمتي (فونو - phono) وتعني الصوت و(غراف - graph) وتعني الكتابة, فهو يستعيد أصواتاً مسجلة تماثلياً على إسطوانات من الشمع أو أي أداة أخرى. الإسطوانة بمعناها الوارد لأول مرة في الفونوغراف هي عبارة عن شكل مخروط، أما في عُرف الجراموفون، وهو الأكثر انتشارا، فهي عبارة عن قرص ذي أخدود حلزوني. يبدأ التسجيل عادة عند طرف القرص وينتهي عند مركزه. الحاكي كان وسط التخزين الأكثر شيوعا للتسجيلات الصوتية خلال القرن العشرين. ورغم حلول التسجيل الرقمي مكانه بدءاً من الثمانينات إلا أنه لايزال ينتج ويستخدم كتحف فاخرة، ينظر.ar.wikipedia.org

الموجّهة ضد النساء تطعن قلبها: مصافحة النساء زنى، المتبرجات يعرضن اجسادهن للبيع، كاشفات الوجوه مصيرهن النار، عمل المرأة حرام، الجامعات المختلطة تمارس الفساد) (الرواية: ٢٣٠).

ومن سلبيات الهوية المعادية وهيمنتها، هو اللجوء للتاريخ وللماضي للهروب من الحاضر واليأس من التفكير بالمستقبل (تفكر نهى ان احوالها في بلدها تتماثل مع احوال الكثيرين ؛ فهم مهمومون بالحاضر ومتطلباته العسيرة وأمانة المفقود وتعلم أن من لا يبالي بالمستقبل فمصيره الفناء. هل ستبالي بالغد ؟؟وماذا يعني الغد لأناس أغتيلت أحلامهم ؟بماذا يصنعون الغد ؟؟باللامبالاة؟ ام بالتشكي ؟أم بالانصراف لاستحضار الماضي في صيغة طقوس او مذكرات أو أوجاع ؟؟... نحن اشباح الكائنات التي مرت بهذه البلاد التعيسة) (الرواية:٣١١).

فعلى الرغم ما للتاريخ من دور في تحديد ملامح الهوية الا ان الرواية تعكس عجز الشباب عن مجاراة واقعهم بكل ما فيه من طائفية وتمايزات عرقية ودينية واجتماعية،ليلجأوا إلى الهروب والتشبث بالماضي الذي يشكل السحر للوهلة الأولى إلا أن الروائية تخترق الحدود السحرية لتعكس بعض التشوهات والانحرافات التي تمزق الهوية الثابته، لذا تؤكد أن الأهمية الوحيدة للتاريخ الإفادة من تجارب الماضي من ناحية، ومن ناحية أخرى تؤكد الجهل والتخلف إلى جانب ما يحمله التاريخ من مضامين، فقد عمدت الروائية الى تعرية التاريخ وكشفه لتجعل شخصياتها أمام تاريخها المزيف والتمجيد الذي لا فائدة منه.

لقد استطاعت الرواية أن تعيد الإنسان إلى كينونته وهويته وتحافظ عليه من التشتت وأن تسبر أغوار الكائن الإنساني وتؤسس لنوع من المعرفة الوجودية بأبعاد الوجود المجهولة التي ظلت مستبعدة عن التحليل العلمي.

الخاتمة

بعد تلك الرحلة في تأرجح الهوية وتشظيها نود التأكيد على أن قضية الهوية موضوع ليس بالهين، إذ إن الهوية ليس لها أسس ثابتة أو حدود واضحة.

لعل المشهد العراقي بكل مراحله التاريخية يحيلنا إلى مجتمع عانى من رواسب المحتل على حساب العقل، فقد شهد الهدم والعداء على حساب البناء وقبول الآخر.

فبعد أن كان الأجنبي هو الآخر، أصبحت الطائفة الأخرى أو المذهب الآخر، هو من ننعته بالآخر!!!

فالثقافة العراقية، ثقافة لها عمق وتأريخ، وجدت نفسها تطمر في مقابل ما استبدلته القوة الطاغية والثقافة المهيمنة المتمثلة بالعدائية والقائمة على استحضار الازمات، وهي ازمات تخريبية وقتية.

هذا التقابل بين الثقافة الحقيقية والثقافة الوهمية خلق نوع من الصراع والازمات في معرفة الهوية الحقيقية للأفراد والجماعات.

ولعل ما مر به العراق من أحداث ليس جديداً فقد تكررت تلك الازمات منذ حقب طويلة، إلا أنه بمجرد زوال الضغوطات والازمات سرعان ما تعود الهوية العراقية بكل ما فيها من طاقات وتجليات.

المصادر والمراجع

- الجرجاني، **التعريفات**، مادة هوية، بغداد ١٩٨٦
- جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، بيروت ١٩٨٦م :ج٢.
- احمد النوره جي، **مفاهيم في الفلسفة**، مادة هوية، ط١، بغداد، ١٩٩٠م .
- ادوارد سعيد، **الاستشراق**، مؤسسة الابحاث العربية – بيروت، ط ٥، ٢٠٠١ م
- جورج لارين، **الايدلوجيا والهوية**، تر: فريال حسن خليفة،مكتبة مدبولي- القاهرة، ط١ ،٢٠٠٢م
- مطاع صفدي، هايدغر والكينونة، **مجلة الفكر العربي المعاصر**، عدد٣، سنة ١٩٨٠
- **الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصرة**، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت (سلسلة كتب المستقبل العربي)(٦٨)،٢٠١٣م : ١٥٧
- أليكس ميكشيللي، **الهوية**، ترجمة : علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية – دمشق، ١٩٩٣م
- بول ريكور، **الهوية و السرد**، ترجمة : حاتم الورفلي،دار التنوير للطباعة والنشر- الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م
- أمين معلوف، **الهويات القاتلة**، ت: نهلة بيضون، دار الفارابي، بيروت- لبنان، ط٢،٢٠١١م
- غيورغي غاتشف، الوعي والفن، تر: د. نوفل نيوف. **عالم المعرفة** العدد ١٤٦. الكويت.
- كليفورد غيرتز، **تأويل الثقافات**، تر: د.محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة،ط١، بيروت، كانون الاول. ديسمبر ٢٠٠٩
- محمد ابو عزة، **هيرمينوطيقيا المحكي**، دار الانتشار العربي – بيروت، ط١ – ٢٠٠٧م
- نادر كاظم، **تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط**، الموسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١ ،٢٠٠٤م.
- إنعام كجه جي، **رواية الحفيدة الامريكية**، دار الجديد، بيروت_لبنان، ط٢، ٢٠٠٩م.
- علي بدر، **رواية حارس التبغ**، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- لطفية الدليمي، **رواية عشاق وفونوغراف وازمنة**. دار المدى –بغداد، ط١، ٢٠١٦م

- آرثر ايزبراجر، **النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة**، ت: وفاء إبراهيم، ورمضان بسطاويسي، المجلس الاعلى للثقافة، سلسلة المشروع القومي للترجمة(٦٠٣)، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.
- شهلا العجيلي، **الخصوصية الثقافية في الرواية العربية**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ٢٠١١م.